مشروع إعداد نسخة إلكترونية
لحولية كلية اللغة العربية بالمنوفية
إعداد وتنفيذ
أ.د/ يوسف محمد فتحي عبد الوهاب
أستاذ ورئيس قسم الأدب والنقد في الكلية

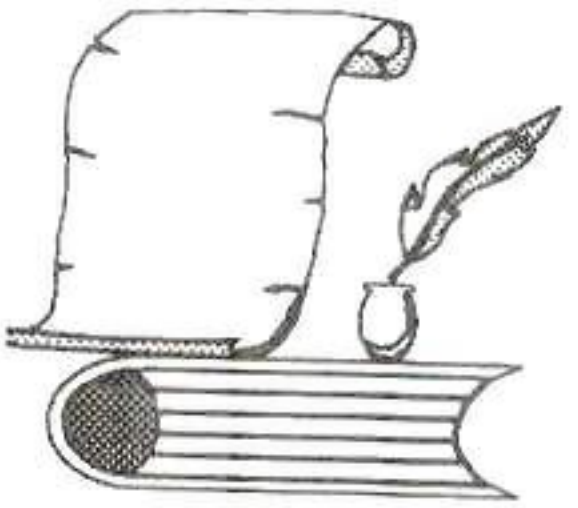

لغتنا المفترى عليها في ساحة الحوار

الأستاذ الدكتور
حمزة عبد الله النشرتي
عميد كلية اللغة العربية بالمنوفية
جامعة الأزهر

١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م

حولية كلية اللغة العربية بالمنوفية، العدد السابع عشر (المجلد الأول)، مطبعة الحرمين ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م

بسم الله الرحمن الرحيم

نظلم اللغة العربيـة كثيرا ـ فى ساحة الحـوار ـ حين نتعامل معـها بوصـفهـا مادة دراسـية يتلقـاها أبناؤنا فى مراحل التـعليم المختلفة؛ فالنظر إليها من هذه الزاوية دون ما عداها نظر قاصر؛ فهى ليست وعـاء لقصائد الشـعر وألوان النثر المتـعددة فحـسب؛ وليست هى البلاغة والبيان فقط، بل ليـست هى النحو والصرف والإعراب، إنها أعم من ذلك كله وأشمل، إن النظرة يجب أن توجه إلى اللغة العربية بوصفها وسيلـة من وسائل التـقدم وبناء الحـضارة، فهى وعـاء الفكر الخـصيب؛ والناطقون بـها ينبغى أن يهـتبلوا الفـرصة السانحـة أمامهم لكـى يجعلوا لغتهم سلاحًا ماضيًا فى صراعهم مع أصحاب الحضارات الأخرى.

ونحن لا ننكر أنه من المفـيد بـل من الضرورى أن ننظر إلى اللغـة العربيـة من الزاوية المشار إليـها رغـبة فى حل مـشكلاتها والقـضاء على أسباب مـحنتها، ولكن الأكـثر ضرورة أن تتسع زوايا النظر إليـها ـ على نحو ما أسلفنا ـ فنعمل جاهدين لبحث أزماتها وطرح قضاياها على بساط الحوار فى منتدياتنا العلمية والثقافية، وفى هيئاتنا التربوية المعنية بأمر تقدم الأمة فكريا وعلـميا وحـضاريا، على أن يكون بحث أزمـة اللغة وطرح قضاياها فى هذه المنتديات والهيئات نابعا من يقين لايتزعزع بأهمية دورها الخلاق فى بناء مستقبل مشرق إشراقة الماضى الذى شيده أسلافنا الأفذاذ.

إن الباحث الغيور فى حال اللغة العربية اليوم يستطيع أن يلحظ بسهولة انحسارها أمام اللغات العالمية الأخرى، بل يستطيع أن يسجل تراجعها فى مراحل الصراع الحضارى الحديث أمام هذه اللغات، ولعل أهم الأسباب أو المشكلات التى أدت إلى هذا الانحسار والتراجع تتمثل فيما يأتى:

أولا: وطأة الحضارة المهيمنة:

فحال اللغة ـ أية لغة ـ مرتبط بحال أهلها الناطقين بها علميا وفكريا وحضاريا، واقتصاديا، ولن تجد لغة ذائعة بغير أمة متقدمة فى مجالات الحياة المتعددة، كما لن تجد لغة خاملة منزوية إلا وأهلها خاملون منزوون، بل قل ذاوون ضعفاء.

والناظر إلى الحضارة الحديثة يجد أنها أسلمت قيادها إلى الغرب، لأن أهله عملوا بأسباب التقدم فانقادت لهم الأسباب وأحرزوا التقدم وملكوا زمام الحضارة الحديثة، بعد أن كان التقدم الحضارى من نصيب الشرق العربى زهاء ألف عام.

والحضارة الغربية الحديثة ليس لها وازع من دين أو خلق؛ بل كل ما يشغل أهلها هو العلوم الطبيعية بأشكالها وصورها المتعددة، وهى علوم مادية خالصة، وما أعطته هذه العلوم من نتائج أدى إلى غلبة الجانب المادى على الجانب الروحى فى تكوين شعوب هذه الأمم الغربية.

وتوشك هذه المظاهر المادية العلمية أن تغلب ـ إن لم تكن غلبت بالفعل ـ على نفوس أمم الشرق العربى أيضا، وقد صار كثيرون من العرب لا يقنعون إلا بالوارد إلينا من نتاج الحضارة الغربية المهيمنة، سواء

أكان نتاجـا ماديا أم نتاجا فكريا وأدبيا، وهو نتـاج يحمل إلينا لغات هذه الأمم، كما يحمل عواطفهم ومشاعرهم وطرق تفكيرهم أيضا.

لقد أضـحى كثير من المفكرين العـرب يحسون قدرا غـير قليل من الانكسار النفسى أمـام أصحاب العلوم الغربيين، فاخـتلطت فى كتاباتهم ومؤلفاتهم لغتُهم العربية باللغات الغربية، لغات أساتذتهم، فلا هم كتبوا بالعربية الصافية الرائقة، ولا قراؤهم فهموا عنهم ما يقولون.

إن الانبهـار بالمظاهر الحضارية الغـربية قد أدى إلى تراجع كثـير من حتميـات الأمة ومسلماتها؛ ومن أهم هذه المسلمات اللغـة العربية، التى صار لا يتقنها ـ حديثـا وكتابة ـ إلا صفوة الصفوة من المتخـصصين فيها، أما غيـر هؤلاء فلا تكاد تحس للفصحى على أسلات ألسنتـهم وأقلامهم وكأن تراجع العربيـة الفصحى على هذا النحو قـد ترك فراغا فى الألسنة والأفـواه فوجـدنا من يسعى إلى تعلـم اللغات الغـربية، ويحـرص على تعليمـها أولاده، وجعلها اللـغة الأولى، لا لشىء إلا لأنها لغة الحـضارة الغالبة بل المهيمنة؛ والضعيف دائما مشوق لتقليد القوى، مولع بالتشبه به حتى فى لغته. ويوم أن كان أسلافنا هم أصحاب الكلمة العليا فى العالم حضاريا وعلميا وفكريا، وكانت أوربا تغط فى سبـات عميق انبهر شباب الفرنجـة فى الأندلس بلغتنا العربيـة فتعلمـوها وأجادوها وحفظوا أشـعار العرب، وهجروا اللاتينية حتى اضطر القساوسة إلى ترجمة كتبهم الدينية إلى اللغة العربية ليقرأها شبابهم.

واليوم تبدلت الحال فحدث العكس، إذ أصبحنا نحن مولعين بتقليد الغربيين والتشبه بهم فى كثير من مجـالات الحياة ومقوماتها، ومنها اللغة بطبـيعـة الحال؛ واليوم نـرى من شبـابنا من لا يكاد يبين إذا نطق بلغـته العربـية، ولا يقدر عـلى الإفصاح عـما فى نفـسه إلا إذا نطق بلـغة من

اللغات الأوربيـة وخاصة الإنجليزية التى اتـخذت لغة للعلم فى كثـير من مدارسنا، بل أصـبح تدريس بعض العلوم الطبـيعيـة مقـصوراً على هذه اللغة.

ثانيا: ضيق النظرة إلى اللغة:

ضاقت النظـرة إلى اللغة العربيـة اليوم حـتى صرنا نتعـامل معـها بوصفـها مادة دراسـية يتلقاها أبناؤنا فـى المدارس والمعاهد العلميـة، فإذا انتهى الطالب من أداء امتحانه فيهـا أدار لها ظهره ولم يعد يفكر فيها إلا بمقدار الدرجات التى تمنحـها له هذه المادة، والخطأ فى ذلك جد واضح؛ إذ العربيـة بعلومها المتعـددة من نحو وصرف، وبلاغة بفـروعها، وأدب بشعـره ونثره، وغيـرها من العلوم اللغوية، لا يمكن أن تخـتزل إلى هذا الحد الذى يجعل منها مجرد مادة دراسية كغيرها من المواد.

إن هذه النظرة الضيـقة تقطع اللغة العربية عن أهـم أهدافها المنوطة بها، وتفقدها كثيـرا من قدسيتها، بوصفها لغة كـتاب مقدس، وترجمان عقيدة مـقدسة، ولسان دعوة إلى الله تعالى؛ ولا حياة لأمـة العرب بغير هذه العقيدة ولا ذكر لهم بغير كتاب هذه العقيدة وهو القرآن الكريم، ولا نهوض لهم إلا إذا حملوا عبء الدعوة إلى الله، وبذلك كله لا غناء لهم عن لغتهم التى شرفها الله سبحانه بنزول القرآن الكريم بها.

وقديما دخلت لغتنا العـربية فى مواجهة عنيفة مـع غيرها من لغات البلاد المفتوحة، وكانت الغلبة لها على هذه اللغات من عبرية، وفارسية، وسنسكريتية، وغيرها لأن الفاتحين حمـلوها إلى الأقطار المفتوحة بوصفها لغة الكتـاب المقدس، ولذلك اسـتقبـلتها شـعوب هذه الأقطار بتـرحاب

وسارعـوا إلى تعلمهـا وإجادتها والتـفقـه فى أسرارها حتى رأيـنا معظم المؤلفين فى علوم الدين والفقه والحديث، ورأينا كثيراً من الأدباء والشعراء من الأعاجم الذين دخلوا فى الدين الجديد.

إن محنة اللغة العربـية اليوم لا ترجع لأسباب خاصة باللغـة نفسها بقـدر ما ترجع لـعلل أصابت الناطـقين بها والقـائمين على أمـرها، ولو تهيأت لهـا الأسباب التى تهيـأت لغيرها من اللغات فى العـصر الحديث لصارت لغة العلم والسـياسة والاقتصاد على مسـتوى العالم، ولن يكون ذلك إلا بعلاج هؤلاء أنفسهم من العلل التى أصابتهم.

ثالثا: مشكلات قومية:

ومن هذه العلل التى أصابت الناطقين بالعربية أنهم انصرفوا عن لغة كتابهم المقدس، اللغة الفصحى، إلى لهجـات عامية محلية، فاتخذ أهل كل بلد من البـلاد العـربية لهـجة خـاصـة بهم لا يفهـمـها أهل البـلاد الأخرى، بل تعددت اللهجات داخل البلد العربى الواحد. وربما كان من أسباب اتخاذ اللهجات المحلية إذكاءُ الاسـتعمار روح النزعات القومية بين أهل هذه البلاد، فوضع الحدود الجغـرافية الفاصلة بينهم، ونجح فى ذلك إلى حد بعيد إذ صارت القومية هى الأساس الثابت فى العلاقات بين هذه البلاد، وفـى ذلك كله انقطاع لأسبـاب التواصل بين أبناء الوطن الـعربى سيـاسيا وعلمـيا ولغويا، رغم أنهم يملكون من المقـومات المشتـركة التى تؤهلهم للتواصى والاندماج أكثر مما يملك غيرهم من شعوب العالم كله.

وقد جـعلت هذه المقومـات المشتـركة من بلاد الوطن العربـى كتلة واحدة تشـبه الجسـد الواحد، وكل بلد منها كـأنه عضو من أعـضاء هذا

الجسد، ولهذا فإن فساد اللغة فى بلد ما يؤثر بدوره فى البلاد الأخرى، كما أن علاج مشكلة اللغة فى بلد واحد لا يصلح شأن اللغة فى البلاد كلها؛ وإنما لابد من تضافر الجهود على مستوى العالم العربى كله فى جعل اللغة العربية هى اللغة الأولى فى كل مجال من مجالات الحياة.

- **فى التعليم**؛ إذ لا يعقل أن تكون اللغة العربية هى لغة التعليم الثانية تاركة الصدارة للغة الإنجليزية، فى بعض الأقطار العربية.

- **وفى التخاطب**؛ حتى لا يكون لدينا لغتان لغة للتخاطب ولغة للكتابة.

- **وفى التجارة**؛ ونحن نرى اليوم كيف تأتى إلينا منتجات الأمم الغربية حاملة لغاتهم التى ارتبطت فى أذهان المستهلكين بالتقدم والحضارة.

- **وفى البث الفكرى والثقافى** فى وسائل الإعلام، وقد أصبح ميسورا اليوم أن يصل الصوت العربى إلى كل بقعة من بقاع الأرض، ومن الضرورى أن يصل هذا الصوت بلغة عربية صحيحة، يستميل قلوب سامعيه إلى لغتنا وإلينا نحن العرب.

- **وفى الوظائف**؛ فلا يعقل أن يشترط أصحاب الوظائف على من يتقدم لشغل الوظيفة لديهم أن يجيد لغة أو لغتين من اللغات الأجنبية دون أن يشير من قريب أو بعيد إلى شرط إجادة العربية، إن ذلك يخنق العربية ويقتلها فى نفوس أهلها، ويجعلهم يحسون تجاهها بالدونية والانحطاط عن غيرها من اللغات العالمية الأخرى.

ولنا فى تاريخ أسلافنا الأماجد العبرة فى هذا المجال؛ إذ كان الوزير لا يعين فى منصبه إلا إذا كان أديبا فذًا، وعالمًا أريبـا، يجيد العربية ويفقه أسرارها، وكـان هذا قيمة الاسـتعلاء بلغـة العرب نضعـه بإزاء الانكسار النفسى أمام اللغات الأوربية الحديثة الذى يحسه كثير من العرب اليوم وقد أشرنا إليه من قبل.

رابعا: مشكلات صوتية ومعجمية:

إن من العجب العجـاب أن تتحول مميزات اللغة العربيـة التى تتفرد بها إلى مشكلات يعانى منها أبناء الجيل الحاضر، ومن هذه المميزات:

أولا: اعتماد اللغة العربية علي الحركـة بوصفها إيقاعًا صوتيًا يرتبط بالمعنى، فـالقارئ يلـحظ أن هناك مجـموعـة من المفـردات المتمـاثلة فى الحروف ولكنهـا تختلف فى الحركات المصـاحبة للحرف فى كـل مفردة، ومن ثم يختلف المعنى؛ تقـرأ مثلا: (كرم) وهى مـفردة مكونة من ثلاثة أحرف ننطقـها (كَـرُمَ) بفتح الأول وضم الثانى وفـتح الثالث فـهى فعل ماض ثلاثـى، وننطقهـا (كَرَمٌ) بفتح الأول والثـانى وضم الثالـث، فهى مصدر للفعل الثلاثى، وننطقها (كَرَّمَ) بفتح الأول وتضعيف الثانى بالفتح وفتح الثالث فهى فعل ماض رباعى، وننطقها (كَرْمُ) يفتح الأول وتسكين الثانى وضم الثالث فهى اسم للعنب. ونقرأ (الحب) بضم الباء وفتح الحاء بمعنى الود، أو بكسـر الحـاء اسم للحبـيب، أو بفـتح الحـاء اسم لثمـار النباتات الزراعية.

ثانيا: ثراء اللغة العربية بمفرداتهـا وعوامل الاشتقاق، وهو أيضا سر جمـال وعظمة ولكنه تحـول ـ كسـابقه ـ إلى سـبب من أسبـاب التراجع

والأزمة ومن مظاهر كثـرة الاشتقاق ما يمكن أن نشتـقه من مادة (شرب) مثل: شَرِب، يشرب، اشرب، شُـرْب، شارب، مشروب، شريب ومادة (علم) يشـتق منها: عَلِم، يعـلم، اعلم، عِلْم، عالم، مـعلوم، عَلاَّمـة وعلاَمة، عَلَمٌ.

والأمثلة على ذلك كثيرة ومتعددة، ولها دلالة مؤكدة على ثراء اللغة العربية الذى لا نظير له فى أية لغة عالمية أخرى.

وللإبقاء على هذه الميزة لابد من حل بعض المعضلات واتخاذ بعض التدابيـر سواء منها مـا يتصل بمتلقى اللغـة من أبناء الجيل الحاضـر أو ما يتصل باللغة وقواعدها.

فمتلقو اللغة يجب أن يتمرسوا كثيرا بفن الأسلوب العربى، ويقرأوا كثـيرا لأساطين البـيان العربى كـالجاحظ وابن المقفع وأبى العـلاء المعرى والمتنبى وغيرهم حتى يعلموا فى النهاية أن ما يحـسبونه مآخذَ على لغتهم هو فى الحقيقة ميزات تحسب لها.

ومن المفيد فى هذا المجال أن تؤخـذ اللغة سماعًا ومشـافهة يتلقاها التلميذ عن أسـتاذ ماهر فى النطق عليم بأسـرار اللغة. ورحم الله الإمام الشافعى الذى ظل يأخذ اللغة من أفواه البدو عشرين سنة قبل أن يتصدى للفتيا.

واللغة نفسها فى حاجة إلى نظرة جديدة تعمل على:

- تنقيتها وتهذيب قواعدها لتخف على اللسان.
- تطوير مفرداتها اللغوية التى ترد عفويا على ألسنة العامة.
- ظهور مـعاجم لغوية حديثـة تعنى بالصوتيات على غـرار المعاجم الأجنبية.

خامساً: ازدواجية اللغة:

ونعنى بذلك أننا أصبحنا أمام لغتين، إحداهما لغة الكتاب وهى الفصحى والأخرى لغة الحديث اليومى وهى اللهجات العامية، وهى صاحبة الغلبة والسيادة حتى فى محاورات كثير من المثقفين والمفكرين. ومن أسف أننا وجدنا من ينادى بجعل العامية لغة الكتابة، وحجتهم أنها لغة الواقع الذى نعيشه، والواقع أحق بالالتزام.

وقد نسى هؤلاء أن اللهجات العامية تختلف من مكان إلى مكان؛ فالمصري لا يعرف لهجة الشامى، والمغربى لا يعرف لهجة العراقى، وهكذا حتى فى بلدان الإقليم الواحد، فكل متحدث بلهجة لا يستطيع أن يُفهم غيره بل يحتاج إلى مترجم يترجم عنه.

ومن المخجل حقًا أن يتخذ بعض الأدباء العامية لغة لإبداعاتهم أملاً فى شهرة، ورغبة فى ذيوع، ويعد هذا الصنيع منهم جريرة أفدح من جريرة الشعوبيين قديمًا والمستعمرين حديثًا.